خطوات على الشلال

بقلم محمود تيمور

فى ضيافة النيل

نحن اليوم ضيوف النهر الخالد ، فقد لبينا دعوته الى شهود الآثار التى تحيط به ، وزيارة المنشآت التى تقوم عليه ، وفى مقدمتها السد العظيم .

انطلقت السيارة تطوى بنا الارض ، ووجهتها السد تلك المنشأة التى اتخذت مكان الصدارة بين الاعمال العمرانية الحديثة ، وبها يتسم العصر كله ، فاننا نحيا فى عصر السد لا مراء . فالرخاء الشامل لهذا الوطن الحبيب هدف له ، والنهوض بالمرافق الزراعية والصناعية على أوسع نطاق امل معلق به ، ولقد ظل ذلك العمل الجبار سرابا لامعا يساور الأعين أعواما طوالا ، وطيفا جميلا يؤنسنا فى عالم الرؤى اللطاف ، والآن يغدو حقيقة ماثلة تتصاعد بخطاها الفساح على درج الخلود .

الطريق الى السد معبد مريح ، به بعض المشـــابه من الطريق الصحراوى بين القاهرة والاسكندرية ، وانك لتلاحظ فيه بوضوح تعمير المنطقة وتعصيرها فى سرعة تبعث على الدهش : أبنية متفرقة لا حصر لها تنبت على الجانبين ، مصـــانع متلاحقة منها ما هو للحديد والصلب ومنها ما هو للكيميائيات ، مدن كاملة لا تكاد احداها تختفى عن الانظار حتى تطالعك مدينة اخرى ، وهى مستعمرات عظيمة للعمال والموظفين ، ولكنها مستعمرات لخير الانسان ورفاهيته وسلامه ، لا لتسخيره واستغلاله واذلاله .

واجتزنا بعد ذلك بقعة صخرية جبلية ، كنا نسير فيها كأنما نشقها شقا ، فبينما تتعالى تلال الحجارة حولنا ، اذ تبدو لنا المناطق التى تعد فيها المواد لبناء السد ، وهى حظائر حافلة بالآلات الضخام ، وبالناقلات والقـــاطرات والمقطورات من السيارات غادية رائحة فى جد ونشاط .

وواجهتنا قرية شعبية عصرية توفر السكنى المريحة للمواطن الكادح ، وتتيح له ان يجد المقام الطيب ، فهنالك ساحات للرياضة ، وقاعات للســـينما والاذاعة واندية للتثقيف ، واخرى للترفيه ، الى كثير من مظاهر التحضر ومرافقه .

ولم نلبث ان التقمتنا منطقة العمل الاصيل ، فاحسسنا أننا قد دخلنا جوف المعركة وانها حقا لمعركة جبارة يشنها الانسان بما أوتى من عقل ، وبما كسب من علم ، لاخضاع الطبيعة وتطويعها لكى يستكمل حضارته .

وأخذنا نجوب المنطقة ، طورا صاعدين الى الروابى والشرفات ، وتارة هابطين الى الأغوار والأعماق ، وشعرنا ونحن نجيل النظر فيما حولنا أننا قد اصبحنا جزءا من المعركة الدائرة ، جنودا نقوم بقسطنا من المشاركة والاسهام : أبراج متحركة ، ورافعات عاتية ، وانفاق وفجوات ، والعمال فيها كالنمل الدائب ، او لكأن المنطقة كلها خلية نحل هائلة سكانها البشر ، وبيوتها جبال ، وآلات ومعدات.

مثلت وقتا أسرح الطرف يمنة ويسرة ، وأنا فى دوامة طاغية : ذلك هو الجبل الاصم الضخم ، وان بطنه ليبقر ، وشرايينه تمزق ، وأوصاله تقطع ، وهاماته تتهاوى ، فيا للجبل الشامخ يحنى هامته امام قدرة الانسان ، ويخلى مكانه لعملاق جديد يتسامق ليسدى الخير والبركة للوادى الخصيب ... انه عملاق السد العظيم !

ورميت ببصرى الى النيل ، فاذا الناقلات النهرية تجوب سطحه كأنها تماسيح من حديد ، وضخام الآلات فى صخب تزحم ضفتيه ، والاحجار تقذف فى فمه ليلتهمها صاغرا معقود اللسان .

ايها النهر الخالد : آن لك أن تعرف حقيقة نفسك ، وحقيقة من يعايشك من البشر حولك ، كنت فيما مضى الها ينظر اليك عبادك بعين الهيبة والرهبة ، ويقدمون اليك من فلذات الاكباد هبات وقرابين ، يستجدون بها رضاك ، حتى تحبوهم من مائك ما تحيا به الارض الموات ، فاخلع عنك اليوم هذه الالوهية ، واقم بين الناس فى غير تعال ولا جبروت ، لا صلاة تفرضها ، ولا قربان تطالب بها ، وحسبك ما قضيت من أعوام مئين بل آلوف ، غارقا فى أحلام خرافية نسجها لك مواطنوك القدامى فى عهودهم البدائية وحضاراتهم الاولى فقد تغيرت بك الحال ، وانتبه الناس من غفلاتهم ينفضون عن عقولهم جهالة الأجيال ، ويلقون من رءوسهم ضلالة القرون ، وكشف الانسان عن نفسه بنفسه ، فآمن بأن الله خلقه ليكون سيد نفسه ، صانع اقداره ، لا ليكون عبدا لآلهة زائفة تبتز منه القرابين .

كل شىء يجرى عليه سنن التطور ، انت ملاق نصيبك منه رضيت أو كرهت، لقد استبدلنا بالوهتك أبوة كريمة ، فلترع حق البنوة ، ولتكن أبا رزينا حكيما يدر الخير لبنيه ، وما أردنا الا أن نكون ابناء برة أوفياء ، نحسن الانتفاع بما تغدقه علينا من فيضك العميم .

كان البحر دائما تجاهك يفغر لك فاه ، ليبتلع من مائك العذب فى سعار وجشع ما يشاء أن يبتلع ، وعلى الرغم من مر الدهور الطوال مازالت احشاؤه اليك عطشى ، لاتمل منك ولا تروى ، وانت اليوم أيها النهر الخالد قادر أن تحبس ماءك ، فلا يتدفق الى البحر ليذهب سدى ، مستطيع أن تعود به على تلك

الصحراوات الممتدة على جانبيك ، المتطلعة ابدا اليك ، لتعبث فيها الحياة والنماء والازدهار ، بعد ان لبثت احقابا بعيدة تأمل ان تحظى بقطرات منك ، تبل بها شفاهها المشققة الجدباء .

ما اسعدك الآن بأن تستطيع أن تمنح من هو أهل للمنح ، وان تحرم من لايضره الحرمان !

وما اسعدنى ، وانا فى موقفى هذا ، بأن اشهد المكان الذى يولد فيه السد وينمو ، ليكون فتحا مبينا لوطنى العزيز .

انى ازور السد اليوم ، وهو فى بطن النهر جنين يتخلق ، أرهف السمع الى نبضات قلبه ، فكأنما اصغى الى هزيم رعوده تدوى فى جوانب الأفق ، واشحذ شعورى نحوه ، فأحس روحه الجياشة امواجا تتصاول وتتصارع . وفى الغد المرتقب ازوره ليستقبلنى على بعد بالترحيب من هديره الدفاق .

اتركه الآن غرسة لأجده عن قريب دوحة ، تظلل الوادى الأمين ، وتؤتيه أطيب الثمرات .

أتركه الآن بيضة فى ضمير الغد ، لأراه من بعد نسرا يحلق بجناحيه فى سماء النيل ، ليحمى شاطئيه ، ويحرس سكانه واهليه .

فسلاما ايها السد العظيم ، والى لقاء وشيك !

انا ماضون الساعة الى زيارة صنوك وزميلك ، شيخنا الوقور « خزان أسوان » . بلفناه والشمس تتوسط كبد السماء ، وترسل باشعتها الساطعة ، لتشيع الدفء والبهجة والاشراق .

وقفنا أمام ذلك الجبار المتمدد على عرض النهر ، صاحب الألف فم وفم ، ومنها يتدفق الموج شلالات هائجه مائجة ، يرغوها الثائر ، وصوتها الهادر ، وعن اليمين وعن الشمال ، تنبسط بساتين فيحاء كأنها جنات عدن .

وملأنى خشوع واكبار للشيخ الوقور : كلانا من سن واحدة ، وان كنت اكبره بأعوام قلال . وكلانا واجه الحياة واعباءها فى شجاعة وصبر ، وتقلبت به الايام بين حلو ومر ، وكان من حظنا أن ندرك العهد الجديد الذى أشرقت فيه على الوادى شمس الحرية والاستقلال كاملة الضياء ، موفورة النماء . وكلانا يشعر ، وان طال عليه الامد ، ان امامه واجبات عليه ان يضطلع بها فى حاضره ، فهو يستمد من قوة العصر وعزمته حيوية النفس وشباب الروح ، ليواكب الركب الجديد فى سيره الى امام .

ملت على الدليل اقول : الى اين ؟

فأجابنى : ان « انس الوجود » ، او بالأحرى : معبد ايزيس يناديك . فهو منا عن كثب . وليس فى مستطاعك ان تجلو عن البقعة قبل أن تؤدى للأثر العتيق شعائر الطواف .

وهبطنا الى المرسى ، فاستقبلنا قارب صغير مهشم بلا شراع ، وعلى رأسه نوبيان هرمان يقودانه ، فنظرت اليه كأنى أنظر الى مركب من « مراكب الشمس » يحرسه روحان من أرواح الفراعنة الأقدمين . وراجعت نفسى بين أقدام واحجام ، ثم قفزت الى القارب وأنا أهمهم على بركة الله ، وفى حماه اتخذك يا مركب الشمس لتبلغنى معبد ايزيس !

وانساب القارب على المياه الهادئة ، وأشعة الشمس ترتعش عليها . هذه بحيرة يختزن فيها الماء خلف الخزان ، وانها لتوحى بجلال القدم ، فنحن نجوزها وكأننا نقوم برحلة فى عهود ما قبل التاريخ . هنالك صخور متراكم بعضها فوق بعض ، تكونت فى عصور بعيدة أقصى البعد ، ولقد كانت هذه الجزر الصخرية موضع الشلال الاول ، والنهر يومئذ طليق لا يجد ما يمنعه ، فتجمع الامواج ما طاب لها الجموح على الصخور فى صخب وهدير ، فاما الآن فقد استحالت البقعة بحيرة هادئة سطحها كملمس الحرير ، بعد ان كبحوا جماح النهر ، وقيدوه بسلاسل لا يملك معها الفكاك ، وغدت تلك الصخور كأنها عمالقة الزمن الغابر ، نزلت الى النهر لتستحم ، فساخت اقدامها فى القاع ، وبقيت مكانها لا تريمه ، كل ما يظهر منها رءوس مبهمة ضخام !

شاهدنا قمة « أنس الوجود » يهل علينا من بعيد ، وقاربناه ودرنا حواليه ، فاذا هو شرفات يكاد الماء المشرئب يخفيها عن العيون ، ورأيت على ذراها طير « ابى قردان » فى بياضه الناصع جاثما يرنو الينا فى محاذرة وتوجس . ففيم التوجس والمحاذرة ايها الطائر الرشيق ؟ ان كنت من طير الفراعنة ، تبيح لنفسك أن تكون من حراس دورها ومعابدها فاطمئن الينا ، نحن من أبناء هذا السلف الصالح صاحب الأمجاد ، وبانى الحضارات ، جئنا نحيى مآثر آبائنا العظام ، وليست روحنا الحاضرة الا امتدادا لروحهم الغابرة ، وليس ما نقوم به اليوم من عمل جديد الا استئنافا لما انشأوه من عمل تليد . ما بالك أيها الطائر القابع لاتصدر عنك نأمة ولا حركة ؟ أتكون قد استحلت طائرا من « الألباستر » يزين المتاحف ودور الآثار ؟

حدقت الى الماء استجلى ما يحجبه عن الاعين من خفايا تلك القصور الغريقة، وذهب بى الخيال كل مذهب ، وساءلت نفسى : هل غدت تلك القصور اليوم مأوى لارواح الفراعنة القدامى ؟ هل استقرت فيها أشباح الكهنة الاولين يتابعون بين انقاضها شعائرهم الدينية تحت ستار الماء فى الخفاء ؟

حينما يحل القيظ ، وينحسر الماء ، ويشيع الجفاف ، تبدو الجزيرة بأكملها فسيحة الأرجاء ، زاخرة بالمعابد والقصور ، فيها ساحات وحجرات ، وفيها عمد وبوابات وفى هذه الفترة يزهو « أنس الوجود » بجزيرته ، ويصبح سيدها الاوحد ، ولكأنى اسمعه يقول : اليك عنى أيها الماء ، لقد غمرتنى أشهرا طوالا ، فدعنى أستمتع بدفء الشمس ، وابرز لأرى الدنيا حيالى ، قبل ان يعاودنى الفيضان، فلا اجد الضياء والهواء الا من أعالى الابراج !

لا عليك يا « أنس الوجود » ، لا عليك أيها الصديق المظلوم ... يوشك عهد سجنك ان ينقضي ، فلن تعيش بعد اليوم شرقا بالماء تعانى الوحدة والظلام . عندى بشرى أزفها اليك ، فانهم سيقيمون حولك سورا عظيما يدرأ عنك غائلة الماء ، كشأن سور الصين القديم . ستحيا بعد اليوم فى أمان من الفيضان ، ولن تغدو موطنا للخرافات والاساطير . ستكون جزيرتك آهلة بالحياة والأحياء ، لا أرواح خفية تسكنك ولا أشباح تمرح فى حناياك ، ولكن يؤمك الناس ليستمتعوا بما فيك من فن أصيل ، ومالك من مجد عريق .

رجعنا بالزورق من حيث اتينا ، حتى أوفينا على المرسى .
وقلت للدليل : حان موعد أوبتنا الى الفندق .
فقال لى مبتسما : لم يحن بعد .
ـ أبقى ما يزار ؟
ـ نعم ، المسلة النائمة .

فرنوت اليه لحظات ، ثم قلت : اتريد منا أن نوقظها ؟
فتراحبت الابتسامة على شفتيه ، وقال : سنحاول أن نفعل ، ولكنها نائمة نومة أهل الكهف !

وزعق يقول لسائق السيارة الى المسلة النائمة .

وجزنا فى الطريق بمقابر اثرية من عهود عربية مختلفة ، ومن عجب أن السيد الدليل أكد لى أن هذه المقابر تضم من رفات أولياء الله الصالحين عددا غير قليل ، وأن على رأس القائمة « السيدة زينب » و « السيد البدوى » .

ـ ولكن للسيدة زينب قبرا فى القاهرة ، وللسيد البدوى قبرا فى طنطا .

ـ أوهام ياسيدى ... قبراهما هنا ... وهذا أمر لا جدال فيه .

وانبرى السائق يناصر الدليل فيما يقول ، وهو يضرب عجلة القيادة فتترنح تحت قبضته ، فألفيتنى أحسم النزاع بالموافقة ، خشية أن يقع من السائق فى هيجته ما يعجل بنا الى اضافة أسماء جديدة ، تزدان بها القائمة المجيدة من سكان البقعة الطاهرة !

وحادت بنا السيارة فى طريق منعزل ، افضى بنا الى منطقة صخرية ، ثم زايلنا السيارة متجهين الى شبه محجر أو منحت . وهنالك راينا عمودا مضلعا يتمدد بصلبه على اديم الصخر ، وضلوعه الثلاث تامة النحت ، فأما الضلع الرابعة فملتحمة بالصخر الاصم . وهكذا بقى العمود فى وضعه الراهن عجبا من العجب ، فلا هو مسلة كاملة ، ولا هو من صميم الجبل ، لا هو وليد مكتمل النمو ، ولا هو نطفة جبلية غير متخلفة ، انه سقط خديج مابرحت أمه محتفظة به فى احشائها .

ايتها المسلة الممددة ، ما اشقاك بما صنعت بك الاقدار ، فانت ابدا فى توثب مشبوب ، ترقبين أن يؤذن لك فى الخلاص .

شبيهة انت بمتهم طالت محاكمته ، وليس هناك من حكم ، وستظلين حبيسة سجنك ، حتى يحكم الزمن فى امرك !

نامى نومة الابد .

انك مشدودة الى امك بأمراس لا سبيل منها الى الفكاك .

لن تدعك هذه الأم الرءوم تفلتين .

وكم من حب وحنان يغدوان فى دنيا الأثرة والأنانية أشد هولا من المحابس والاغلال .

نامى يا اختاه بسلام !